الإمام الكسائي ومنزلته بين القرَّاء

د. محمد رجب سويسي
كلية الآداب / جامعة الزاوية

مقدمـة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: فقد منّ الله تعالى على أُمة الإسلام بأنْ أرسل لها خير الأنام، وختم به الرسل والأنبياء، رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويرشدهم إلى الحق، ويهديهم صراطاً مستقيماً، فكان -صلى الله عليه وسلم- اللبنة التي ختم الله بها النبوءات والرسالات، لقوله -صلى الله عليه وسلم- : "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بنياناً، فأحسنه، وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون به، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة – قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[1]، وبهذا أكمل الله دينه العظيم ورسالته الخالدة مصداقاً لقوله تعالى: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) [المائدة: (3)] وجاء من بعده -صلى الله عليه وسلم- خير الناس من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان ممَّن خلفهم الله تعالى لتحمل أعظم مهمة، وأصدق وسيلة، وأشرف غاية، وهي حفظ كتابه، وضبط حروفه وكلماته وآياته، كما أنزل، فنقلوه إلينا غضا طرياً، فهؤلاء الأئمة العظام والجهابذة النقاد الذين تتبعوا حروفه، حرفاً حرفاً، وأداءً ورسماً مصداقاً لقوله تعالى:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9] فحفظ بذلك كتابه العظيم، من عبث العابثين، وتحريف الجاهلين، وافتراء الكاذبين ومن هؤلاء الذين حفظ الله بهم كتابه على بن حمزة الكسائي النحوي اللغوي صاحب القراءة السبعية المتواترة، الذي يعد من القراء المشهورين، الذي بلغت شهرته الآفاق، وهو موضوع بحثنا الذي نقدِّم له، وقد ويشتمل هذا البحث على مقدمة وثلاثة مطالب، وخاتمة لأهم نتائج البحث.

المطلب الأول: مدخل إلى علم القراءات والقرَّاء:

أولاً- تعريف علم القراءات: القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر سماعي لقرأ، وهو من قَرَاَهُ يَقْرَؤُه، قُرْءاً وقِرَاءَةً وقُرآناً، فهو مقروء، ويُسمَّى كلام الله... كتاباً وقُرْآناً وفرقاناً، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسُمى قرآناً، لأنَّه يجمع السور فيضمها لقوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) [القيامة: 17] أي جمعه وقراءته، (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)[القيامة: 18]أي قراءته قال ابن عباس -رضي الله عنه– فإذا بيّناه لك بالقراءة فاعمل بما بيّناه لك[2].

وفي الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القرّاء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف، أم في نطق هيئاتها[3]، وعرّفه ابن الجزري فقال: "القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة"[4].

ثانياً- نشأة علم القراءات: نشأ علم القراءات أول ما نشأ منذ اللحظات الأولى لتلقّي رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لكلام ربه بواسطة جبريل الأمين -عليه السلام- فكان عليه الصلاة والسلام يقوم به آناء الليل وأطراف النهار مرتّلاً له ومجوِّداً. يسمعه أصحابه، وكل ذلك استجابة لأمر الباري له حين أمره بقوله: (أَوْ زِدْ عليه ورتل القُرْآنَ تَرْتِيلاً)[المزمل: 4]، وقوله عز وجل:(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لتقرأه على النَّاس عَلَى مكث ونزلناه تَنزيلاً) [الإسراء: 116].

وقد أتقن الصحابة رضوان الله عليهم تلاوته؛ وذلك راجع إلى جودة سليقتهم العربية إضافة إلى كونهم قد تلقَّوا هذا القرآن غضاً طرياً من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم قاموا هم

بتعليمه لمن وراءهم على النحو الذي سمعوه وتلقوه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يراعي لهجات القبائل العربية في النطق واللفظ، ولهذا كان نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف[5]. وذلك من فضل الله على هذه الأمة ومن توسعته لها وقد احتفى المسلمون بقراءة القرآن وضبطه في كل العصور، واشتهر في كل زمن من الأزمنة وجيل من الناس وبلدٍ من البلدان أناسٌ عرفوا باسم (القُرّاء)، فصاروا يعلمون الناس كتاب ربهم، ويُقرئونهم آيات كتابه العزيز، كلٌ حسب مبلغ علمه من الرواية التي تلقّاها عن أشياخه، فانتشر بذلك علم القراءات، وصار له علماء وطلاب، وألّفت فيه المؤلفات الغزار التي بقي كثير منها شاهداً على أصالة هذا العلم ورسوخه.

ثالثاً-القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة:

أ- **القراءة الصحيحة.** وهي القراءة المقبولة المعتبرة شرعاً في التعبد بتلاوة القرآن بها. ويشترط للقراءة الصحيحة حتى تكون مقبولة توافر ثلاثة شروط[6]:

1- أنْ تكون موافقة للعربية ولو وجهٍ صحيح من أوجه اللغة العربية.
2- أنْ تكون موافقة للرسم العثماني ولو احتمالاً، مثل (ملك) تحتمل (مالك)، ومثل (مكانتكم) (مكاناتكم).
3- أنْ تكون موافقة للسند، وهو أنْ ينقلها عدد كبير يستحيل في العادة اجتماعهم على الكذب.

والقراءات المقبولة عشر، ولكل قراءةٍ إمامٌ اشتهر بها وأخذها الناس عنه.

ب- **القراءات الشاذة:** وهي القراءة التي اختل فيها ركن من أركان القراءة الثلاثة التي سلف ذكرها[7]، وأشهر القراءات الشاذة أربع[8]:

- قراءة ابن محيصن: محمد بن عبد الرحمن المكي.
- قراءة يحيى اليزيدي: أبو محمد بن المبارك البصري.
- قراءة الحسن البصري الإمام المعروف.
- قراءة الأعمش وهو أبو محمد سليمان بن مهران.

أنواع القراءات الشاذة:

1- ما ورد آحاداً وصح سنده، لكنه خالف رسم المصحف، أو قواعد العربية.
2- ما لم يصح سنده مع موافقته للرسم وقواعد النحو.
3- القراءات الموضوعة المختلقة[9].
4- **القراءات التفسيرية:** وهي التي سيقت على سبيل التفسير، مثل قراءة سعد (وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس). أو قراءة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما)

وقد اتفق العلماء على أنَّ كل قراءة غير القراءات العشر تعدُّ شاذة؛ لأنَّها غير متواترة؛ وعليه فلا يجوز اعتقاد قرآنيتها، ولا تصح الصلاة بها، والتعبُّد بتلاوتها، إلا أنَّهم قالوا: يجوز تعلمها وتعليمها وتدوينها، وبيان وجهها من جهة اللغة والإعراب[10].

رابعاً- نبذة مختصرة عن القرَّاء العشرة:

1. **نافع المدني[11]:** هو أبو رويم، وقيل أبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي مولاهم، وهو مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب المدني.

كان عالما بوجوه القراءات، انتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة، ثقة صالح، وكان حسن الخلق فيه دعابة، أخذ القراءة عرضاً عن سبعين من التابعين، وأقرأ الناسَ دهراً طويلاً يقارب السبعين سنة، وانتهت إليه رياسة القراءة بالمدينة وصار الناس إليها. مات سنة تسع وستين ومائة، وقيل: سبعين وقيل: سبع وستين، رحمه الله تعالى. وأشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته: قالون و وَرش.

2. **عبد الله بن كثير[12]:** هو عبد الله بن كثير الداري المكي أبو معبد القارئ، من أبناء فارس، مولى عمرو بن علقمة الكناني. وكان إمام الناس في القراءة بمكة تحفه السكينة ويحوطه الوقار، قال ابن سعد: ثقة وله أحاديث صالحة، توفي - رحمه الله - في سنة عشرين ومئة. وأشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته : قُنْبل محمد بن عبد الرحمن، وأحمد بن محمد البزي.
3. **أبو عمرو بن العلاء[13]:** هو زبان بن العلاء بن عمار التميمى المازنى البصرى، أحد القرَّاء السبعة ليس فيهم أكثر شيوخا منه، سمع أنس بن مالك وغيره، وقرأ على الحسن البصري وغيره، قرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد، وكان لجلالته لا يُسأل عن اسمه، قال عنه ابن معين: ثقة. وقال أبو حاتم: ليس به بأس، مات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته : حفص بن عمرو الدوري، وصالح بن زياد السوسي.
4. **عبد الله بن عامر [14]:** هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة اليحصبي الدمشقي، تابعي جليل، أحد القرَّاء السبعة. قيل في كنيته ثمانية أقوال!! أصحها - كما يقول المزي-[15]: أبو عمران وكان يقول : قُبِض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولي سنتان، وانتقلت إلى دمشق ولي تسع سنين[16]. مات بدمشق في أول عاشوراء من المحرم سنة ثماني عشرة ومائة، وله سبع وتسعون سنة، أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته : هشام بن عمار الدمشقي، وعبد الله بن أحمد.
5. **عاصم بن أبي النجود[17]:** هو أبو بكر عاصم بن بهدلة بن أبي النجود الأسدي مولاهم الكوفي، شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القرَّاء السبعة. وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، توفي بالكوفة آخر سنة سبع وعشرين ومائة، وقيل سنة ثمان وعشرين ومائة، أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته: حفص بن سليمان، وشعبة بن عياش.
6. **حمزة الزيات[18]:** هو أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات الكوفي التيمي مولاهم وقيل من صميمهم أحد القراء السبعة، ولد سنة ثمانين وأدرك الصحابة بالسن فيحتمل أنْ يكون رأى بعضهم. وكان حمزة متبعاً لآثار من أدرك من أئمة القراء عالما بالقراءة ومذاهبها، على قدر كبير من الديانة والورع. إليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش. وقد زكاه عدد من العلماء المعاصرين له لما عرفوا من خصاله الحميدة ورسوخه في العلم. توفي سنة ست وخمسين ومائة في خلافة أبي جعفر، وقيل سنة ثمان وخمسين، وقبره بحلوان مشهور. أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته: خلاد بن خالد، وخلف بن هشام.
7. **الكسائي[19]:** واسمه علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز ألأسدي مولاهم، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات. قيل لقّب بالكسائي لأنَّه أحرم في كساء. وانتهت إليه القراءة واللغة والنحو والرياسة. وقال بعضهم: كان الكسائي إذا قرأ أو تكلم كأن ملكا ينطق على فيه. وقد عاش رحمه الله سبعين سنة، أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته : حفص بن عمرو، والليث بن خالد.
8. **يزيد بن القعقاع[20]:** أبو جعفر القارئ المدني يزيد بن القعقاع، مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي. أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات. وكان إمام أهل المدينة في القراءة وعرف بالقارئ، وكان من المفتين المجتهدين. توفي في خلافة مروان بن محمد سنة سبع وعشرين و مئة، وعاش نيفاً وتسعين سنة. أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته: عيسى بن وردان، وابن جماز.
9. **خلف البزار[21]:** هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب أبو محمد الأسدي البزار، أحد القرَّاء العشرة، ولد سنة خمسين ومائة وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وابتدأ في الطلب

وهو ابن ثلاث عشرة. وكان ثقة كبيراً زاهداً عابداً عالما، روي عنه أنَّه قال: أشكل عليَّ باب من النحو فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حفظته! مات في جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين ببغداد، وهو مختف من الجهمية. أشهر تلاميذه الذين رووا عنه قراءته: إسحاق الورّاق، وإدريس الحداد.

10. **يعقوب الحضرمي:** هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، أبو محمد البصري المقرئ النحوي، مولى الحضرميين، أخو أحمد بن إسحاق الحضرمي، وكان الأصغر، وجده عبد الله بن أبي إسحاق أخو يحيى بن أبي إسحاق[22]. وهو أحد القرَّاء العشرة، وله من القراءات رواية مشهورة منقولة عنه، قال محمد بن إسحاق السَّراج: ولد سنة ست وستين و مئة [23] وقيل ولد بعد الثلاثين و مئة[24]، وتوفى سنة 205هـ.

المطلب الثاني- التعريف بالإمام الكسائي:

أولاً- اسمه وكنيته ولقبه: هو الإمام علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي من الموالي، وهو فارسي الأصل، وأحد أئمة الكوفة[25]. كنيته أبو الحسن، ولكنه لم يشتهر بها، ويكنى أحياناً بأبي عبد الله، ولقبه الكسائي و به اشتهر، وقد ذكر بعضهم عدة أسباب للقبه، منها أنَّه دخل الكوفة وجاء إلى حمزة الزيات وهو ملتف بكساء، فقال حمزة: من يقرأ؟ فقيل له صاحب الكساء، فبقى عليه[26]، وذكر السيوطي أنَّه سأل أبا عبد الله الطوال كيف سمِّى الكسائي؟ فقال: كان الناس يجالسون معاذ بن مسلم الهراء في الخروز والثياب الفاخرة، وكان هو يجالسه في كساء روذ باري فقيل له الكسائي[27]، وقيل إنَّه سمة الكسائي؛ لأنَّه من قرية باكُسايا[28] وقيل إنَّه كان يصنع الكساء[29]، وقد سئل الكسائي لم سُمِّيت بالكسائي؟ قال: لأنّي أحرمت في كساء[30]، ولعل هذا الأخير هو أرجح الأقوال في لقبه إذ دلَّ عليه أنَّه أفصح بنفسه سبب لقبه بالكسائي. وهناك عدد آخر يحمل لقب الكسائي، وكلهم من القرَّاء[31].

ثانياً- مولده ونشأته: لم تذكر المصادر عن طفولته شيئاً، غير أنَّهم قالوا إنَّه من أولاد الفرس، بدليل اسم جده الأول فيروز، أصله من قرية باحمشا[32] من سواد العراق[33] وهي تقع بين قرية أوانا والحظيرة[34]، ودخل الكوفة وهو غلام[35] وهناك حفظ القرآن الكريم مشافهة عن قرَّائها المعروفين، ومن أشهرهم حمزة الزَّيات الذي أقرأ بقراءته زماناً قبل أنْ يختار لنفسه قراءة[36].

ولم يذكر أصحاب التراجم أولاداً للكسائي، ولا أسمائهم، ولا اسم زوجة له، لكن في خبر له مع الأخفش، قال له الكسائي: "إنَّ لي أولاداً أحب أنْ يتأدبوا بك، ويتخرَّجوا عليك"[37].

ثالثاً- خُلقه وثناء العلماء عليه: وُصِفَ الكسائي بأنَّه صادق اللهجة، لا يتحدَّث إلا بما سمع، قال أبوزيد: "ما جرَّبت على الكسائي كذبة قط"[38]، وقال ابن معين: "ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي"[39].

وقال له الفرَّاء كالممتحن حين لقيه يتخيّر في أمر يصعب عليه جوابه: "يا أبا الحسن، من يعترض عليك؟ قل ما شئت، فأنت الكسائي، فأخذ لسانه بيده، وقال: "قطعه الله – إذن إنْ قلت ما لا أعلم"[40].

وقال فيه الأزهري: "هو ثقة مأمون"[41]، ومن أشهر خصاله الدعابة والطرف، ومن ذلك ما حكاه قائلاً: وقفت يوماً على نجار فقلت له: بكم هذان البابان؟ فقال: بسلحتان، قال فحلفت ألا أكلم عامياً إلا بما يصلحه"[42].

ووصفه البعض بالعجب والرياء، ونفى عنه هذه الصفة البعض الآخر؛ وذلك بعدما نال من رياسة الدّين والإقراء بتأديبه لأولاد الخلفاء حيث قال فيه ثعلب: "كان السلطان قد أفسده"[43].

وقد بيَّن هذا الأمر أبو عمرو الداني فقال: "لم يغير الكسائي من حالة مع السلطان إلا لباسه، قال: فرآه بعض علماء الكوفيين، وعليه جربانات (قمصان) عظام، فقالوا له: يا أبا الحسن، ما هذا الزي؟، قال: "أدب من أدب السلطان لا يثلم ديناً، ولا يدخل في بدعة، ولا يخرج عن سنة"[44].

رابعاً- شيوخه وتلاميذه: أخذ الإمام الكسائي ودرس على جماعة كبيرة من شيوخ عصره الذين لهم باع طويل في علوم القرآن وعلوم العربية نذكر منهم على سبيل المثال:

1- أبان بن تغلب: وهو ابن رباح البكرى الجريري مولى بن جرير بن عبادة، وهو قارئ، مفسِّر، لغوي، محدِّث، فقيه، من غلاة الشيعة، وله مصنَّفات منها: غريب القرآن، وكتاب صفين، وكتاب القراءات وغيرها، مات سنة إحدى وأربعين ومائة[45].

2- الأعمش: وهو محمد بن سليمان بن مهران، مولى بن كاهل من ولد أسد، يلقَّب بالأعمش، تابعي مشهور، ولد بالكوفة، ونشأ بها، و لقى أنس بن مالك، ولكنه لم يرو عنه شيئاً[46]، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، قال الذهبي: "كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح"[47]، مات بالكوفة سنة ثمان وأربعين ومائة[48].

3- جعفر الصادق: وهو محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قرأ على أبائه -رضي الله عنهم- وأخذ عنه القراءة حمزة الزيات وغيره، توفي سنة ثمان وأربعين ومائة[49].

4- حمزة الزيات، وهو الإمام الحبر ابن عمارة بن إسماعيل الكوفي التميمي بالولاء، ولقَّب بالزيات؛ لأنَّه يبيع الزيت، أحد القرَّاء السبعة ولد سنة ثمانين، وأدرك الصحابة بالسّن، فيحتمل أنْ يكون قد رأى بعضهم، أخذ القراءة عن الأعمش، وجعفر الصادق، وابن أبي ليلى[50]، وكان عالماً بالقراءات، قال عنه سفيان الثوري: "غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض"[60]، مات سنة ثمان وخمسين ومائة[61].

وكان الكسائي قد قرأ على حمزة ونظر في وجوه القراءات، وكانت العربية علمه وصناعته، واختار من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار من تقدم من الأئمة.

وقال الكسائي: أدركت أشياخ أهل الكوفة القرَّاء الفقهاء: ابن أبي ليلى، وأبان بن ثغلب، والحجاج بن أرطأة، وعيسى بن عمر الهمداني، وحمزة الزيات[62].

وأمَّا تلاميذه فقد أشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري.

1- أبو الحارث: هو الليث بن خالد البغدادي، ثقة، حاذق ضابط للقراءة متقن لها، قال فيه الداني: "كان من جلة أصحاب الكسائي" عرض على الكسائي، وروى الحروف عن حمزة ابن القاسم، عن اليزيدي، وروى القراءة عنه عرضاً وسماعاً كثيرون منهم: الفضل بن شاذان، و سلمة بن عاصم، وغيرهم، توفي سنة مائتين وأربعين[63].

2- الدوري: هو أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان الدوري الأزدي البغدادي النحوي، كان ضريراً، نزل بسامراء، وأقام فيها، وكان إمام القراءة في زمانه، وهو ثقة، ثبت كبير، وقد رحل في طلب القراءات، وقرأ بسائر الحروف السبعة، وبالشواذ، ولد أيام المنصور سنة خمسين ومائة في الدور – موضع ببغداد – وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين، وكان ذلك في آخر أيام المتوكل الذي قتل سنة سبع وأربعين ومائتين[64].

المطلب الثالث- مكانته العلمية:

أولاً- الإمام الكسائي قارئاً: كان الكسائي علماً من أعلام الكوفة في القراءة، ومفخرة من مفاخرها، كان أستاذاً كبيراً، وإماماً محققاً، وكان من أهل الرواية، مكَّن له ذكاؤه وحبه للعلم وإخلاصه له أنْ يجمع بين علوم الدين والعربية[65]. فهو إمام الكوفيين غير مدافع كما يقول أبو الطيب اللغوي[66]،

وهو أحد القرّاء السبعة، وقد شهد له الجهابذة بالعلم بالقراءات واللغة والنحو قال عنه ابن مجاهد: "اختار الكسائي من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار ما تقدَّم من الأئمة[68]، وقال أبو عبيد: "كان الكسائي يتخيَّر القراءات فأخذ من قراءة حمزة بعضاً، وترك بعضاً، وكان من أهل القراءة، وكانت علمه وصناعته، ولم نجالس أحداً أضبط ولا أقوى بها منه"[69]، ويقول ابن الجزري: "كان إمام الناس في القراءة في زمانه وأعلمهم بالقرآن، وانتهت إليه الرياسة في الإقراء بعد وفاة شيخه حمزة"[70]، ومما يدل على علمه ما قاله ابن الأنباري: "اجتمعت في الكسائي أمور كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن، فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم فيجمعهم في مجلس ويجلس على كرسي ويتلوا القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادئ"[71].

ثانياً- الإمام الكسائي نحوياً: يعد الكسائي من أشهر علماء اللغة والنحو بجانب أنَّه من أعلم الناس بالقراءات، وما يدل على ضلاعته في هذا العلم أنَّه اتخذ لنفسه قراءة مستقلة عن شيخه حمزة الزيات أحد القراء السبعة. وقد تعلَّم النحو في عمر متأخر وهو كبير. قال الفرَّاء: إنَّما تعلمه على كبر، وسبب ذلك أنَّه جالس قوماً وقد مشى حتى تعب، فقال لهم: قد عَيَّيْتُ، فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟ فقال: كيف لحنت؟ فأجابوه: إنْ كنت أردت من التعب فقل: أعْيَيْتُ، وإنْ كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحيّر في الأمر، فقل: عييت مخففاً[72]، فأنف من هذه الكلمة، ثم قام من فوره، وسأل عمّن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ بن مسلم الهراء، فلزمه حتى أنفذ ما عنده، ثم خرج إلى البصرة، فلقى الخليل بن أحمد الفراهيدي، فجلس في حلقته، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسداً وتميماً وعندها الفصاحة وجئت إلى البصرة؟ وقد رحل الكسائي إلى البادية غير مرة، فقد رحل إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة يسمع عن أعرابها من غريب نوادرها ما أنفد في كتابته خمس عشرة قنينة حبر سوى ما حفظ[73]، وقد وضع الكسائي القاعدة النحوية تبعاً للقراءة المروية، ومثاله وضعه قاعدة جواز العطف على اسم المنصوب قبل تمام الخبر على قراءة الرفع في (الصابئون) في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمنوا والذين هادوا والصابئون) [المائدة: 71]، وكذلك ووضعه لقاعدة "إنَّ اسم الفاعل يعمل النصب إذا بمعنى الماضي اعتباراً بشبه المضارع معنىً، وإنْ زال الشبه لفظاً اعتماداً على قوله تعالى: (وكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)[الكهف: 18]، وجاء في طبقات الزبيدي: "رأيت الكسائي بالبصرة في مجلس يونس بن حبيب وهو يناظره مناظرة النظير"، ونقل عن ابن السرّى، قوله: "حضر الكسائي مجلس يونس، فقال: "لم صارت "حتى" تنصب الأفعال المستقبلية؟ فقال يونس: هكذا خُلقت، فضحك به"[74]. وسأل يونس الكسائي يوماً: ما تقول: في قول الفرزدق:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف الخمرُ

على أي شيء رفع الخمر؟ فأجاب الكسائي، فقال يونس: "أشهد أنَّ الذين رأسوك رأسوك باستحقاق"[75]. وجاء أنه قيل للكسائي على أي شيء رفعت الخمر؟ فقال: "أضمرت فعلاً، كأنَّه قال وحلت له الخمر، فقال يونس: "ما أحسن والله توجيهك"[76].

ثالثاً- مكانته العلمية: للإمام الكسائي مكانة علمية بارزة بين علماء عصره في العلوم المتجهة إليها آنذاك، وهي النحو واللغة والقراءات، وقد أوتي الكسائي همة عالية في طلب العلم منذ حداثته، بلغت به إلى أنْ كان رئيس الكوفيين في النحو والقراءة، وأحد أركان نقلة اللغة، فلا يكاد يخلو كتاب من نقوله وآثاره حيث جمع علم المصرين – البصرة والكوفة – وزاد، قال فيه الأزهري: "كان الغالب على الكسائي اللغات والعلل والإعراب، وعلم القرآن"[78]، وقال عنه الإمام الشافعي: "من أراد أنْ يتبحَّر في النحو، فهو عيال على الكسائي"[79]، ويقول ابن الأعرابي: "كان أعلم الناس، وكان ضابطاً قارئاً عالماً بالعربية صدوقاً"[80] ويقول فيه أيضاً: كان الكسائي أعلم من أبي زيد بكثير

بالعربية واللغات والنوادر، ولو كان نظر في الأشعار ما سبقه أحد، ولا أدركه أحد بعده"[81]، وقال فيه ثعلب: "أجمعوا على أنَّ أكثر الناس كلهم رواية، وأوسعهم علماً: الكسائي"[82]، ويقول ابن الأنباري: "ولو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفرّاء، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس إذ انتهت العلوم إليهما"[83]، ويقول إسحاق الموصلي: "ما رأيت أعلم بالنحو قط منه، ولا أحسن تفسيراً، ولا أحذق بالمسائل، المسألة تشق من المسألة، والمسألة تدخل على المسألة"[84]، وقد ألف الكسائي الكثير من الكتب ولكن للأسف لم يصل منها إلا النذر اليسير، والباقي ذكرت في نقول متفرِّقة، وقد بلغت مؤلفاته ما يقارب العشرين مؤلفاً، منها على سبيل المثال كتاب (ما تلحن فيه العامة) وكتاب: (متشابه القرآن)، وهما كتابان صغيران مطبوعان[25]، وأمَّا باقي الكتب فللأسف لا يوجد منها شيء غير ما ذكرنا، ومن هذه الكتب معاني القرآن[86]، قال عنه الأزهري: "للكسائي كتاب في معاني القرآن حسن، وهو دون كتاب الفرَّاء في المعاني[87]. وله كتاب مختصر النحو، وكتاب القراءات، وكتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة، وأهل الكوفة، وأهل البصرة[88] وغيرهم مما يضيق المقام لذكرهم.

وفاته: مات الكسائي وبموته انطفأ شهاب لامع، ودفن علم غزير، وتمنَّى الفرَّاء: لو بقى الكسائي حياً، ليستفيد من علمه، وليستوضحه ما أشكل عليه من مسائل نحوية .

وقد أجمع مترجموه على أنَّه خرج مع الرشيد إلى الريّ، وأعتل هناك، وتوفى بقرية يقال لها رنبويه' وفي هذا اليوم توفى معه محمد بن الحسن الشيباني، وقيل إنَّ الذي توفى معه هو القاضي أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان' وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، فقيل توفى سنة اثنين وثمانين ومائة' وقيل سنة ثلاث وثمانين ومائة' وقيل سنة سبع وتسعين ومائة وقيل سنة ثمانين ومائة' والذي رجَّحه العلماء هو سنة تسع وثمانين ومائة، قال ابن الجزري: "واختلف في تاريخ موته، فالصحيح الذي أرَّخه غير واحد من العلماء والحفَّاظ، سنة تسع وثمانين ومائة صحبة الرشيد بقرية رنبويه من عمل الري'' قال الرشيد عند موته: "دفنت الفقه والعربية برنبويه" يعني الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني" .

الخاتمة:

نستخلص من هذا البحث بعض النتائج وهي:

1- الكسائي فارسي الأصل، من قرية باحمشا من سواد العراق، دخل الكوفة وهو غلام، وهناك حفظ القرآن مشافهةً عن قرائها المعروفين، ومن أشهرهم حمزة الزيات.

2- كان الكسائي صادق اللهجة، لا يتحدث إلا بما سمع، حتى قال عنه أبو زيد: "ما جرَّبت على الكسائي كذبة قط". وهو "ثقة مأمون" كما قال فيه الأزهري.

3- أخذ القراءة عن شيخه بن حبيب الزيات، ثم خالفه في حروف، واتخذ لنفسه حرفاً، فأصبحت له قراءة تنسب إليه، فقد كان يتخيَّر القراءات، وكان من أهل القراءة.

4- كان من أعلم الناس بالنحو وأوحدهم في الغريب، وفي القرآن فلا غرابة أنْ تكون له قراءة مستقلة.

5- روى عنه خلق كثير ومن أهم طرقه جعفر النصيبي، وأبو عثمان البغدادي الضرير من طريق الدوري، ومحمد بن يحيى، وسلمه بن عاصم من طريق الليث البغدادي.

6- كان للكسائي اختيارات في القراءات مما تعلمه اختيارات في القراءات مما تعلَّمه ورواه، وقد خالف بهذه الاختيارات شيوخه، وإنْ كان من المسلَّم به أنَّ الاختيار سيكون هو مما صح نقله بالتواتر عن النبي -صلى الله عليه وسلم– ووافق رسم أحد المصاحف العثمانية، ووافق العربية

ولو بوجه، وهذا هو الذي حدث في قراءة الكسائي، فقد اختار مما صح له سنده بالتواتر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم .

هوامش البحث:

1. متفق عليه، رواه البخاري رقم (3535)، ومسلم برقم (6101).
2. ابن منظور، لسان العرب: 3563/5، باب القاف، مادة قرأ، مناهل العرفان: 412/1.
3. الزرقاني: مناهل العرفان،412/1، دار الشام، مطبعة عيسى البابلي الحلبي.ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تصحيح على الضباع: 19/1، وينظر: الدمياطي،إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: 3/1.
4. المصدر السابق نفسه، والناقلة: ضد القاطنين كما جاء في القاموس.
5. البخاري بشرح فتح الباري، كتاب فضائل القرآن، باب: أُنزل القرآن على سبعة أحرف، برقم (4991، 4992)، 28/9، 29، تحقيق: عبد العزيز بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.
6. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق فواز أحمد زمرلي، 89/1، دار الكتاب العربي، بيروت، صفوت محمود سالم، فتح رب البرية شرح المقدمة الجزرية: 69/1.
7. الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 331/1 وما بعدها، مكتبة دار التراث، القاهرة.
8. الزرقاني: مناهل العرفان 440/1، 464، 465.
9. الزركشي: البرهان في علوم القرآن: 231/1، 332.
10. البرهان في علوم القرآن 1/ 332.
11. ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، ص: 53، دار المعارف، الطبعة الثالثة، البخاري، التاريخ الكبير: 8/ 87 دار الكتب العلمية، بيروت، ابن الجزري، غاية النهاية: 422، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبقة الأولى، 2006م، ابن حجر: تقريب التهذيب،تحقيق عبد الوهاب عبدا للطيف: 238/2 دار المعارف، الطبعة الثانية، 1395هـ، مناهل العرفان: 318/1.
12. المزي، تهذيب الكمال، 468/15، دار المأمون، دمشق، تقريب التهذيب 318/2، ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 322/5مؤسسة الرسالة، مناهل العرفان 457/1.
13. صلاح الدين السفدي، الوافي بالوفيات،تحقيق الأرناؤوط، 470/4 دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 276/1.
14. التاريخ الكبير: 5/ 156، ابن سعد، الطبقات الكبرى: 7/ 449، دار صادر، بيروت، تهذيب الكمال 143/15، الصفدي: الوافي بالوفيات،تحقيق الأرناؤوط،403/5 دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، مناهل العرفان 315/1.
15. تهذيب الكمال: 143/15
16. الوافي بالوفيات: 5/ 403.
17. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس 9/3 دار صادر بيروت، مناهل العرفان 458/1.
18. التاريخ الكبير3/ 52، الطبقات الكبرى 385/6، تهذيب الكمال 323/7، الذهبي، سير أعلام النبلاء : 91/7، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1995م، غاية النهاية في طبقات القراء 1/ 115، عمر كحالة، معجم المؤلفين 4/ 78 دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ الطبعة.

19. غاية النهاية في طبقات القراء 239/1، الوافي بالوفيات 381/6، مناهل العرفان 462/1.
20. غاية النهاية في طبقات القراء: 446/1، الثقات 543/5، تهذيب الكمال 200/33، تقريب التهذيب376/2، التاريخ الكبير 353/8، سير أعلام النبلاء 287/5، وفيات الأعيان 274/6.
21. غاية النهاية في طبقات القراء 120/1، الطبقات الكبرى 348/7، تقريب التهذيب 272/1، وفيات الأعيان 241/2، مناهل العرفان 464/1، الزركلي، الأعلام:311/2 دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، 1997م، بيروت.
22. تهذيب الكمال: 315/32.
23. سير أعلام النبلاء: 169.
24. سير أعلام النبلاء: 170.
25. علي بن حمزة الكسائي، مقدمة كتاب ما تلحن فيه العامة، ص: 5، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق د. رمضان عبد التواب، د.ت، وينظر معجم الأدباء، م7، 167/13، ووفيات الأعيان، 295/8.
26. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص: 128، دار المعارف، مصر، (د.ت).
27. المزهر في علوم اللغة 445/2.
28. غاية النهاية 539/1.
29. مقدمة كتاب ما تلحن فيه العامة، ص6.
30. طبقات النحويين، ص: 128، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: 404/11، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د.ت)، إنباه الرواة 271/2.
31. مقدمة كتاب ما تلحن فيه العامة، ص10.
32. القفطي، إنباه الرواة: 256/2، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الأولى، 1986م.
33. ابن الجزري، غاية النهاية، 535/1.
34. تبعد عن بغداد بنحو عشر فراسخ، وينظر: إنباه الرواة 256/2، الحموي، معجم البلدان 316/1.
35. إنباه الرواة 256/2.
36. غاية النهاية 538/1.
37. أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، 151/1، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1423هـ-1980م، وينظر: الإمام الكسائي وآراؤه النحوية، موسى حسين علي الإمام، ص22، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدعوة الإسلامية.
38. معجم الأدباء: 193/13.
39. النشر في القراءات العشر 225/1، غاية النهاية 537/1، 538.
40. تاريخ بغداد 411/11.
41. أبي منصور الأزهري،تهذيب اللغة، 17/1، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف، 1384هـ-1964م.
42. الإمام الكسائي وآراؤه النحوية، ص23.
43. أبي الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص142، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، 1394هـ-1974م.

44. تاريخ بغداد: 411/11، إنباه الرواة: 266/2.
45. معجم المؤلفين: 1/1.
46. وفيات الأعيان: 400/2.
47. وفيات الأعيان: 400/2، الأعلام: 135/3.
48. الأعلام: 135/3.
49. غاية النهاية: 196/1، وفيات الأعيان: 327/1.
50. الأعلام: 227/2، كتاب السبعة، ص: 79.
51. غاية النهاية: 263/1.
52. المصدر السابق.
53. كتاب السبعة ص: 78، 79،د.سمير شريف استيتية، القراءات القرآنية، عالم الكتب الحديثة، ص: 202.
54. مناهل العرفان: 462/2، القراءات القرآنية، ص:204. النشر في القراءات العشر: 173/1.
55. مناهل العرفان: 462/2، القراءات القرآنية، ص: 203؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 222/9، دار المعارف، القاهرة، 1967م، د. محمد حبش، الشامل في القراءات المتواترة، ص:42، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ-2001م.
56. الإمام الكسائي وآراؤه النحوية، ص: 26.
57. مراتب النحويين، ص120.
58. كتاب السبعة في القراءات، ص78.
59. غاية النهاية في طبقات القراء: 538/1.
60. النشر في القراءات العشر 172/1، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، حجة القراءات، ص61، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة 1404هـ-1984م، القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية، ص199.
61. النشر في القراءات العشر، 172/1.
62. ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 168/13، دار إحياء التراث العربي – بيروت، لبنان، (د.ت)، وينظر مقدمة ما تلحن فيه العامة، ص: 12.
63. معجم الأدباء 169/7، ينظر: لابن حجر، تهذيب التهذيب 313/7، دار صادر، الطبعة الأولى.
64. طبقات الزبيدي، ص127، دار المعارف، مصر، (د.ت).
65. تاريخ بغداد: 410/11.
66. لأبي القاسم الزجاجي، مجالس العلماء، ص20، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1403هـ-1983م.
67. تهذيب اللغة: 17/1.
68. تاريخ بغداد 406/11، غاية النهاية 538/1.
69. الداوودي، طبقات المفسرين 404/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م.
70. معجم الأدباء، 189/7.
71. أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص120.